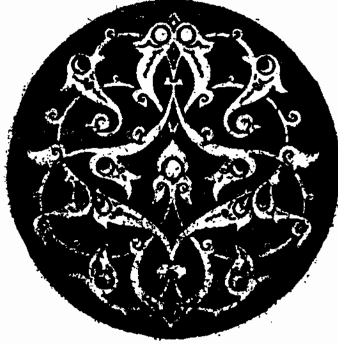
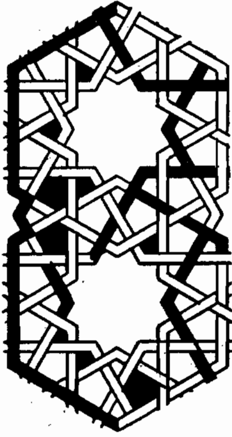
الدكتور شوقي ضيف

وحدة التراث





امتنا العربية ذات تراث واحد روحى وعقلى وادبى ، ونور تراثها الروحى الباهر القرآن الكريم المعجزة التى ليس لها سابقة ولا لاحقة فى تاريخ الحياة الروحية الانسانية نور يهدى الانسان سواء السبيل منتقلا به من الظلمات الموحشة الى عالم النور والهداية الربانية بما شرع القرآن له من قيم روحية خالصة ترسم له أصول عقيدة الهية رفيعة وعبادات وفضائل تطهر نفسه وتزكى قلبه ، وقيم عقلية تخلصه من السحر والكهانة والخرافة وتعده للعلم والمعرفة والانتفاع الحياة ، وقيم اجتماعية تدفعه الى العدالة والمساواة بينه وبين افراد الأمة فى جميع الحقوق والواجبات ، وقيم انسانية تكفل للانسان كرامته وحريته حتى فى دينه .

وبهذا الدين الحنيف المثالى ـ لا بالسيف ـ فتح العرب ايران واستولوا على أهم ولايتين للدولة البيزنطية : الشام ومصر ، وامتد السيل النورانى سريعا الى شمالى افريقيا حتى المحيط فى الغرب والى أواسط آسيا والهند فى الشرق . وكل هذا العالم الكبير فتح القرآن الكريم مغاليق القلوب من سكانه ، فاذا هم يدخلون فى دينه أفواجا ، واذ الفئة العربية القرشية تكتسح كل ما التقت به من لغات فى تلك البلدان ، اذ كانت تلاوته فرضا مكتوبا على كل مسلم ، وأيضا فانهم وجدوا فيه بلاغة رائعة وبيانا صافيا شفافا ، فهجروا لغاتهم الى لغته ، واتخذوها لسانا لهم يعبرون به عن ذات مشاعرهم وعقولهم .

والقرآن بذلك عمم وحدة الدين ، وعمم أيضا وحدة اللغة فى أمته من أواسط آسيا الى المحيط حتى بين من لم يتابعوا دينه من أهل الديانات الأخرى سماوية وغير سماوية لسمو العربية وخصائصها البلاغية الرائعة ولمرونتها فى الاشتقاقات والاستعمالات اللغوية ، مما وسع محيط العربية ، وجعلها خليقة بأن تكون لغة عالمية . ويكفى أنها حين غزت اللغات القديمة فى

● وحدة التراث

منطقة الشرق الأوسط ، وخاصة الفارسية والسريانية واليونانية التى كانت شائعة فى الشام ودواوينها وكذلك فى دواوين مصر استعلت عليها جميعا ، وملكت من السكان فى تلك المنطقة وغيرها الألسنة والأفئدة ·

وبجانب القرآن الكريم وجمعه الأمة على لغة واحدة كان هناك الحديث النبوى الذى يوضح ويفصل تعاليم الاسلام الروحية والأخلاقية والعقلية والاجتماعية والانسانية ، وكان الصحابة يروون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان هو نفسه يحثهم على ذلك ويحضهم عليه · وقد أخذت تنهض بسرعة – منذ عهده – حركة علمية عظيمة حول تشريعات الدين ، وكان المسلمون يلقونه يوميا للاستماع منه الى هذه التشريعات وما يصحبها من تعاليم ، وكان يرسل الى القبائل رسلا ليعلموا أهلها كتاب الله وسنة رسوله وما يحملان من كل شئون الدين فى عباداته ومعاملاته وأوامره ونواهيه · وبمجرد انتشار الصحابة فى الأمصار الاسلامية أخذوا يبلغون المسلمين فى أقطار الأرض كتاب الله وسنة رسوله · وسرعان ما تجرد منهم فى كل بلدة اسلامية معلمون يتحلق الناس حولهم فى المساجد ، يقرءونهم الذكر الحكيم ويروون لهم الحديث النبوى ويبسطون لهم القول فى تفسير القرآن وفى العبادات وما سنه الاسلام فى المعاملات ·

ويعنى فريق من الصحابة فى الأمصار الاسلامية بتلاوة القرآن الكريم وضبطها أدق ما يكون الضبط ويأخذ القراءة عنهم التابعون ، ويشتهر بها أئمة فى كل مصر ، وتتميز منهم جماعة تكون هى القراء السبعة الذين اشتهروا فى العالم الاسلامى الى اليوم ، وقراءاتهم بذلك تراث عام للأمة فى المشارق والمغارب · وألحق علماء القراءات بهم سبعة آخرين ، وكلهم من قراء القرن الثانى الهجرى تقريبا ، ومن زمنهم الى زمننا توارث القراءات واحد ، لا يصيبه أى اختلاف من جيل الى جيل ·

ومثل القراءات تفسير الذكر الحكيم ، ففيه تراث مأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم عن صحابته وخاصة أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس ، وحمله التابعون عنهم الى آفاق الأرض : الى العراق وخراسان والشام واليمن ومصر ، مع بعض اضافات لهم ، وأخذت مادة هذا التفسير المأثور تتضخم من جيل الى جيل حتى سجلها الطبرى فى تفسيره الضخم لأواخر القرن الثالث الهجرى · وتظل مادة هذا التفسير بأعين كل من حاولوا تفسير الذكر الحكيم بعد الطبرى من غزنة فى أفغانستان الى قرطبة فى الأندلس ·

وهذا نفسه يلاحظ فى الأمهات من كتب الحديث النبوى وشروحها ، ونعرض لكتاب واحد من تلك الأمهات هو صحيح البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ فقد شرحه مرارا علماء يمتدون من بست وهراة فى أفغانستان الى قرطبة فى الأندلس ، مثل أحمد بن محمد الخطابى البستى الأفغانى وابن بطال القرطبى والنووى الدمشقى وشرحه مطبوع ، وشرحه المصريون مرارا كثيرة من أمثال ابن الملقن والبلقينى والدمامينى ، ومن شروحهم المطبوعة فتح البارى فى شرح صحيح البخارى لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ وارشاد السارى فى شرح صحيح البخارى للقسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ واستمر الصحيح يشرح فى الحقب المتأخرة مثل شرح القارى الهروى المتوفى سنة ١٠١٤ وحاشية عبد القادر الفاسى المتوفى سنة ١٠٩١ وشرح على زاده حلمى المتوفى سنة ١٠٦٧ · وكل شارح من هؤلاء الشراح كان يرجع الى الشراح قبله · ولهذا كله دلالتان : دلالة على أن صحيح البخارى بمجرد أن ألفه صاحبه أصبح تراثا عاما مشتركا للعالم العربى جميعه ، ودلالة ثانية هى أن شروحه تحولت بدورها تراثا عاما للأمة ، فما يؤلفه منها شارح فى أقصى الشرق مثل بست وهراة يعكف على قراءته العلماء فى أقصى الغرب فى فاس وقرطبة ، ولو أننا عنينا بأن نجمع كل ما كتب من شروح وأعمال حول صحيح البخارى لشغل ذلك منا عشرات الصفحات · ولعل من الطريف أن نعرف أنه استحال فى مصر أثناء العصور الوسطى الى مايشبه عملا شعبيا ، اذ كان يقرأ فى

للمساجد ، ويتجمع أهل القاهرة لسماعه وخاصة فى شهر رمضان ، وكان ذلك يحدث فى كثير من البلدان العربية ، وكانت تعقد بمصر احتفالات كبيرة عند اختتام قراءته .

ومما يوضح لنا هذا الجانب من وحدة التراث الدينى الروحى المذاهب الفقهية ، ومعروف أن مذهب الامام أبى حنيفة أقدمها وأنه نشأ فى العراق ، وقد نماه فى مصنفات كثيرة تلميذه محمد بن الحسن الشيبانى البغدادى ، وتوالت الشروح تشرح مصنفاته ،ولم يلبث أن ظهر فى المذهب تلميذ مصرى خصب الملكات هو أبو جعفر الطحاوى فكتب مصنفات بديعة حملت عنه الى جميع الآفاق ، وتعاقب فقهاء الأحناف فى العالم الاسلامى ، وتعاقب لهم مالا يكاد يحصى من المصنفات ، وكل مصنف يحاول أن يقرأ جميع ما كتب قبله فى الفقه الحنفى ، ويثبت ما لكل فقيه سبقه ــ منذ أبى حنيفة الى زمنه ــ من رأى أو فتوى فى مسألة من المسائل الشرعية . ويحاول ذلك نفسه فى العصور المتأخرة كتاب الشروح والحواشى .

ونشأ مذهب الامام مالك فى الحجاز ، وفيه وضع كتابه « الموطأ » الذى كان يلقيه بالمدينة المنورة ، ونمى مذهبه بعده تلميذ له مصرى هو عبد الرحمن بن القاسم فى مصنف فرع فيه على كتاب الموطأ فروعا كثيرة . وعن ابن القاسم أخذ المذهب تلميذ مغربى هو سحنون القيروانى التونسى ونشره فى المغرب جميعه ، وأخذ المذهب عنه أيضا يحيى بن يحيى الليثى فقيه الأندلس وامامها ، وكان قد تتلمذ لمالك ثم تتلمذ لابن القاسم وأخذ عنه كل ما عنده ، وعاد الى قرطبة فنشر المذهب بها وبالأندلس . وامتد فرعان منه الى العراق والشام ، وأخذ كل خالف من فقهاء المذهب يؤلف فيه على مر العصور مستضيئا بكتابات أسلافه ومؤلفاتهم ذاكرا دائما آراءهم وما لهم من اجتهادات واستنباطات .

وينزل مصر الامام الشافعى وبها توفى ، وتتلقى عنه مذهبه ، ويحمل عنها الى جميع الأمصار الاسلامية ويتكاثر أتباعه لا فى مصر وحدها ، بل أيضا فى الشام والعراق وايران ، ولتلميذيه المصريين : المزنى والبويطى فضل كبير فى نشر المذهب ، وخلفهما عليه أئمة كثيرون فى مختلف الأزمنة مثل أبى أسحق الشيرازى وامام الحرمين الجوينى الخراسانى والرافعى القزوينى والنووى الدمشقى وابن دقيق العيد المصرى ، ولهم ولأمثالهم عشرات الكتب فى المذهب وعشرات الشروح والحواشى .وحين ترجع الى حاشية فى حقبة متأخرة ترى أسماء أئمة المذهب تتردد جميعا لايغيب منهم أحد مثل من سميناهم ومثل العز بن عبد السلام والرملى .

وبالمثل كان لمذهب الامام ابن حنبل أئمة كثيرون حملوه عنه ، وقد بدأ ازدهاره ببغداد منذ حياة مؤسسه ، ونمت منه فروع فى العالم الاسلامى وخاصة فى الشام ، وعنيت به مصر واحد ينشط بها منذ زمن الأيوبيين ، ومن كبار أئمته عبد الغنى المقدسى الحنبلى وابن تيمية .

وكل من يقرأ فى كتب هذه المذاهب الأربعة الأساسية فى الفقه والتشريع وينظر فى مؤلفيها وبلدانهم يلاحظ انهم موزعون على تلك البلدان لا فرق بين بلدة وبلدة ، اذ يكاد يكون لكل بلدة نصيب من المؤلفين فى هذا المذهب أو ذاك . وتستطيع أن تلاحظ ذلك بوضوح حين تتناول كتب التراجم الخاصة بكل مذهب ، فانك اذا رجعت الى الديباج المذهب لابن فرحون الخاص بفقهاء المذهب المالكى أو الى كتاب تاج التراجم لابن قطلوبغا الخاص بفقهاء المذهب فرحون والى كتاب طبقات الشافعية للسبكى أو الى كتاب طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى رأيت توا أن لكل بلدة كبيرة فقهاء فى المذاهب الأربعة ، فاذ أنت اخترت أصحاب مذهب واحد ودرست كتبهم وجدت فقههم واحدا أو قل تراثهم الفقهى واحدا لأنه تراث مشترك ، ولا فرق مثلا بين أصول الفقه الحنفى وفروعه فى بلدة وفروعه وأصوله فى بلدة أخرى ، وقل ذلك نفسه فى بقية المذاهب .

- ٢ -

وما قلناه عن وحدة التراث الدينى يصدق على التراث النحوى واللغوى والبلاغى ، أما التراث النحوى فعد فيه كتاب سيبويه ــ منذ ألف ــ المصدر الأساسى لمادته ، وأخذ تلميذه الأخفش الأوسط ومن جاءوا بعده من نحاة المدرسة البصرية يعتمدون عليه ، فاتحين الأبواب للاجتهاد ، مستنبطين كثيرا من الآراء ، مؤلفين فى النحو كتبا كثيرة .وبالمثل صنعت الكوفة فى النحو ، استحدثت فيه مذهبا شاد الفراء أركانه ، وخلفه نحاة مدرسته يجتهدون ويستنبطون ويؤلفون كثيرا من الكتب ، ثم جدت فى النحو ومدرسة ثالثة ببغداد ، أقام صرحها نحاة مختلفون أهمهم أبو على الفارسى .

وحين نقرأ فى كتب المدرسة البغدادية الثالثة سنجدها لا تترك رأيا لامام من أئمة المدرستين السابقتين : البصرية والكوفية الا تذكره ، ثم يحاول أئمتها بدورهم النفوذ من خلال ما قرءوه

عند أساتذة المدرستين المذكورتين الى آراء جديدة لم يسبقهم اليها سابق · وبذلك كان مذهب المدرسة البغدادية يقوم على آرائهم الجديدة من جهة ، وعلى اختياراتهم من آراء نحاة البصرة والكوفة من جهة ثانية · ونشأت بعد هذه المدارس الثلاث مدرستان في مصر والأندلس ، وقد وضع أئمتهما نصب أعينهم الاختيار من آراء المدارس الثلاث السابقة واستنباط آراء مبتكرة جديدة ·

وبذلك تحول كتاب النحو الكبير منذ القرن الخامس الى مايشبه دائرة معارف نحوية كبرى ، فالباب يفتح وتعرض قواعده ومسائله ، وتذكر فيها آراء المدارس الثلاث : البصرية والكوفية والبغدادية ، ويقارن مؤلفه بين تلك الآراء المختلفة لأئمتها ، ويختار لنفسه منها مايراه أكثر سدادا ، ويضيف الى اختياره ما يهديه اليه فكره واستنباطه من آراء جديدة · واقرأ في شرح ابن يعيش الحلبي على كتاب المفصل في النحو للزمخشري الخوارزمي أو في شرح الرضي الاستراباذي الطبرستاني على الكافية لابن الحاجب المصري أو في كتاب التسهيل وشرحه لابن مالك الأندلسي أو في كتاب ارتشاف الضرب أي عسل النحو لأبي حيان الأندلسي أو في مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المصري أو في همع الهوامع للسيوطي أو في حاشية الصبان على الأشموني ، فستجد نفسك أمام موسوعات نحوية كبرى ، تساق فيها آراء جميع النحاة : بصريين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين ومصريين ، حتى لتعجب أشد العجب من قدرة هؤلاء المؤلفين النابهين على جمع هذا التراث النحوي الهائل منذ سيبويه الى زمن كل منهم تقدم الزمن أو تأخر ، وما ذلك الا لأنه كان تراثا واحدا ، وهو تراث اشتركت فيه الأمة العربية بجميع نحاتها من أقصى الشرق في خراسان الى أقصى الغرب في الأندلس ، حتى ليخيل اليك كأن النحاة الماضين من جميع البلدان العربية وعلى مر الأزمنة عاشوا في بلدة كبيرة واحدة ، فكل نحوي يعرف الأئمة السابقين له في مختلف بلدانهم ، وكأنهم مواطنون له يواطنونه في بلدته ، ويعايشهم يوميا ويخالطهم في غدوهم ورواحهم ومحاضراتهم واملاءاتهم · ولذلك كنت دائما تجد العالم العربي ــ لا في علم النحو وحده بل في كل العلوم وخاصة الدينية ــ حين يبرح اقليمه الى بلدة في اقليم آخر لا يشعر أنه غريب، اذ كثيرا ما يجد شهرته سبقته اليها ، وربما سبقته اليها بعض مؤلفاته ومصنفاته ، فاذا علماؤها يرحبون به ، واذا هو يجد طلابا يريدون الاستماع اليه ، وسرعان ما يستديرون حول حلقته لاستماع دروسه ·

ونضرب لذلك مثلا : أبا حيان النحوي فانه حين ترك موطنه : الأندلس الى القاهرة فرض له علماؤها وظيفة في أحد المساجد واستدار حوله الطلاب يستمعون الى ما يلقيه ، وهو نفسه ماحدث لكثيرين من العلماء قبله وبعده ممن نزلوا في القاهرة ، واتخذوها موطنا لهم ومقاما ، وهم يعدون بالعشرات ،ولم يكن ذلك يحدث في القاهرة وحدها ، بل كان يحدث في كل مدن العالم العربي ، فهو عالم واحد ، علمه دائما واحد وتراثه واحد ·

وعلى نحو ما رأينا من وحدة التراث في النحو كانت تعم نفس الوحدة في التراث اللغوي وكتبه ومعاجمه ، فمن يؤلف معجما أو كتابا لغويا يضع الكتب اللغوية والمعاجم السابقة نصب عينه يستمد منها مادته ، ونمثل لذلك بمعجم تهذيب اللغة للأزهري المتوفى سنة ٣٧٠ للهجرة ، فقد ذكر في مقدمة معجمه أئمة اللغة الذين نقل عنهم المادة اللغوية مترجما لهم ترجمات موجزة مع ذكر كتبهم التي انتفع بها في معجمه ، وقد ذكرهم واحدا واحدا حتى بلغوا أربعة وثلاثين عالما لغويا في مقدمتهم الخليل بن أحمد صاحب معجم العين ونص على سبعة أئمة آخرين لم يبلغوا في الثقة مبلغ الأولين ، وعد منهم ابن دريد صاحب معجم الجمهرة ، وقال انه نقل عنه حروفا يسيرة ·

ومن أروع ما يصور التواصل الوثيق في التراث اللغوي كتاب المخصص في اللغة لابن سيده الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ وهو معجم بحسب الموضوعات والمعاني لا بحسب الألفاظ والكلمات ، ونراه في مقدمته يذكر حشدا ضخما من مصادره، في مقدمتها كتب الأصمعي في السلاح والابل والخيل وكتب أبي زيد في الغرائز والجرائم وكتب أبي حاتم السجستاني في الأزمنة والحشرات والطير وكتابات أبي عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث والمصنف وكتابات ابن شميل في الصفات وغريب الحديث وكتب ابن الأعرابي في النوادر وأبيات المعاني والخيل وكتب ابن السكيت في اصلاح المنطق والألفاظ والفرق والأصوات والزبرج والمثنى والمكنى والمبني والمؤاخي والممدود والمقصور ، وكتب أبي حنيفة الدينوري في النبات والأنواء وكتابات ثعلب في الفصيح والنوادر وكتب المبرد في المذكر والمؤنث وغيره وكتب ابن قتيبة في الأشربة ومعاني الشعر والأنواء وغريب القرآن وغريب الحديث والميسر والقداح وكتب اللحياني في اللغة وكتابا كراع المصري : المنضد في اللغة ومختصره المجرد، وبجانب هذه الكتب والدراسات اللغوية الخالصة

يذكر ابن سيده المعاجم التى استعان بها فى تأليف مخصصه ، وهى معجم العين المنسوب الى الخليل ومعجم الجمهرة لابن دريد وكتاب البارع لأبى على القالى وكتاب الزاهر فى معانى كلمات الناس لأبى بكر الأنبارى ٠

ويتبين من هذا السرد الذى وضعه ابن سيده فى مقدمة مخصصه لكتب اللغة التى اطلع عليها أنه لم يترك كتابا قيما فيها لمؤلف فى طول العالم العربى وعرضه الا اطلع عليه وأفاد منه ، ولم يكتف فى مادة كتابه بمعاجم اللغة وكتبها الخاصة، فقد ذكر فى مقدمته أنه رجع إلى كتب نحوية مختلفة فى مقدمتها كتاب سيبويه ، وكتاب الايضاح فى النحو لأبى على الفارسى وكتاب الحجة فى علل القراءات السبع التى دونها أستاذه ابن مجاهد فى كتابه السبعة فى القراءات وأيضا كتب املاءاته مثل الحلبيات والبغداديات والشيرازيات والبصريات الى غير ذلك من كتبه ، وشرح السيرافى على كتاب سيبويه وكتابات ابن جنى فى الخصائص وسر الصناعة ، وشرح كتاب سيبويه للرمانى وتفسيره للقرآن ٠

وهذا عالم واحد من علماء اللغة فى أقصى الغرب بمرسية فى الأندلس يحاول أن يؤلف كتابا فى اللغة فيجمع له كل الكتب والمعاجم اللغوية التى ألفت فى البلاد العربية حتى أقصى الشرق ٠ ولعل فى ذلك ما يدل بوضوح على أن التراث اللغوى كان تراثا مشتركا بين جميع البلدان العربية وأن رفوف مكتبة من المكتبات الكبرى فى تلك البلدان لم تكن تخلو من كتاب قيم من كتبه ٠ وكأن الوطن العربى جميعه ازاء التراث كان ــ كما قلنا ــ بلدة كبيرة واحدة ، يتعارف أهلها على كل سكانها السابقين ، حتى كأنهم لا يزالون بينهم أحياء ،وهم يقرءون ما يؤلفون لهم ويصنفون ٠

وهذه الوحدة فى التراث نلتقى بها فى علوم البلاغة ، فمنذ وضع الجاحظ أصولها الأولى وتلاه ابن المعتز يضع علم البديع احد علومها ومحسناته تكاثر علماؤها ومصنفوها من مثل قدامة وابن وهب وابن طباطبا وابى هلال العسكرى وابن سنان الخفاجى ٠ ويضع عبد القاهر الجرجانى علم المعانى ويعطى علم البيان بتشبيهاته واستعاراته ومجازاته صيغته النهائية ٠ وتضاف الى المحسنات التى ذكرها ابن المعتز محسنات جديدة ٠ وتتحول تلك المحسنات وقواعد علمى البيان والمعانى عند عبد القاهر الى ما يشبه نجوما قطبية يستضيء بها فى جميع البلدان العربية من قاموا على التراث البلاغى من أمثال الزمخشرى والخوارزمى والفخر الرازى والزملكانى الدمشقى والتنوخى البغدادى وابن الأثير الموصلى ويحيى بن حمزة اليمنى

واذا مضينا بعد هؤلاء البلاغيين الأعلام الى عصر المتون والشروح وجدنا الخطيب القزوينى الدمشقى داراوتدريسا يؤلف فى البلاغة متنا طريفا يسميه متن التلخيص ، وسرعان ما يتجرد غير عالم فى البلدان الاسلامية لشرحه ، فيشرحه فى اقصى الشرق السعد التفتازانى ويضع على شرحه السيد الجرجانى حاشيته ، ويشرح المتن أيضا عصام الدين الاسفراينى الخراسانى ، ويشرحه احد علماء المغرب ، ويشرحه بهاء الدين السبكى المصرى ٠ فالتلخيص تراث بلاغى عام ، ليس تراث دمشق وحدها ، بل هو تراث جميع البلدان العربية ، وكل بلد يتجرد منها عالم لشرحه

ومن يرجع الى مقدمة شرح السبكى على متن التلخيص يجده يذكر انه استعان فى شرحه بثلاثمائة كتاب ، وكثير منها لا نعرفه ، لانه لا يزال مخطوطا محفوظا على رفوف المكتبات الكبرى أو لأنه سقط من يد الزمن ، ومما ذكره وهو مطبوع بين أيدينا كتاب البديع لابن المعتز واعجاز القرآن للرمانى والصناعتين لأبى هلال العسكرى والكشاف للزمخشرى وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي والوساطة لعلى بن عبدالعزيز الجرجانى والبديع لابن منقذ ودلائل الاعجاز واسرار البلاغة لعبد القاهر ونهاية الايجاز للفخر الرازى والمثل السائر لابن الاثير والمصباح لبدر الدين بن مالك والتبيان لابن الزملكانى والأقصى القريب للتنوخي وشرح بديعية صفى الدين الحلى وشروح كتاب المفتاح للسكاكى من مثل شرح قطب الدين الشيرازى والترمذى والكاشى الى غير ذلك من مصادر ــ كثيرة انتفع بها السبكى فى شرحه ٠

ولعل فى ذلك كله ما يصور مدى وحدة التراث البلاغى ، فكل ما الف فى البلاغة وعلومها وكل ما اتصل بها من كتابات فى النقد وعلم الأصول والنحو ــ كما صرح بذلك السبكى فى مقدمة شرحه ــ يصبح مادة له فى صنع هذا الشرح ، واذا أنت أخذت تقرؤه وجدت علماء البلاغة معروضين عليك عرضا علميا دقيقا منتهى الدقة ، كل عالم وافكاره وما اكتشفه من قواعد البلاغة ومن محسنات البديع ٠ ولايخطئك أبدا أن تعرف لهذا العالم أو لذاك أفكاره وآراءه داخل هذا التراث البلاغى الممتد نهره الكبير من اواسط آسيا الى المحيط الأطلسى ، كما لا يخطئك ابدا ان تشعر بوحدة تسود هذا التراث ٠

- ٣ -

ولم تقف هـذه الوحدة عند تراثنا الروحى وعلومه ولا عند تراثنا النحوى واللغوى والبلاغى وما اتحم به من العلوم ، بل امتدت ايضـا الى تراثنا الذى اتصل بعـلوم الأوائل : الفلسـفة والطب والطبيعة والكيمياء والرياضة ، فبمجرد أن ترجمت هذه العلوم الى العربية فى القرنين الثانى والثالث للهجرة تحولت سريعا تراثا واحدا مشتركا بين جميع الاقطار العربية . ومعروف أن حركة الترجمة للفلسـفة والعلوم اخـذت تنشط فى بغداد بقوة اذ اهتم بهـا خلفـاء بنى العباس وكافأوا عليها المترجمين مكافئات كبيرة ، فاندفعوا يترجمون وينقلون الى العربية كل ما استطاعوا من كنوز علمية حتى كأنه لم يبق كتاب مهم يونانى أو فارسى أو هنـدى الا ترجمه النقلة ، وقد أكبوا على العربية يتزودون منها أزوادا كبيرة ، حتى يتقنوا النقل ويحكموه. ويقال ان النقل أولا كان نقلا حرفيا ، حتى اذا كان عصر المأمون اخذ المترجمون ينقلون جملة المعنى ، فالمترجـم لكتاب يقـرا الفقرة فيه ويتمثلها ثم ينقلها الى العربية . وكانت الحركة من الخصـب بحيث تـكون سريعـا للعرب عـالم كيميائى كبير ، هو جابر بن حيان الذى عاش فى القرن الثـانى الهجرى وترك فى الكيميـاء رسائل أصبحت أسس هذا العلم واصوله فى العربية . وتتسع الحركة العلمية والفلسـفية فى عصر المأمون ، فيظهر عالم رياضى فذ هو الخوارزمى واضع علم الجبر لأول مرة فى تاريخ الرياضيات ، كما يظهر أول فيلسـوف عربى بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسـوف ، ونقصـد الكندى . وظهـر بعـد الكنـدى والخوارزمى وجابر بن حيان فلاسفة وعلمـاء عرب لا يكادون يحصون عدا

ولسنا بمجال الحديث عن مدى ازدهار تلك الحركة الضخمة الكبيرة وما نشـأ عنهـا من فلاسفة نابهين فى مجالات الفلسفة وعلمـاء أفذاذ فى مجالات الرياضة والكيمياء والطبيعة والطب انما نريد أن نلفت الى ان كل علمائنا وفلاسفتنا فى الاقطار العربية كانوا يتعاملون بلغة علميـة وفلسفية واحدة : لغة مصطلحاتها الفلسفيـة والعلمية واحدة ، ولا خلاف فى أى مصطلح بين الرازى والفـارابى وابن سـينا فى الشرق يشتغل بعـلوم الأوائل . ومن يقـرا الكنـدى والـرازى والفـارابى وابن سـينا فى الشرق يستطيع أن يقـرأ بسهولة أيضـا ابن باجـة وابن رشد وابن طفيل فى الغرب . وعلم كعلم الطب الذى أودعه ابن سينا كتابه القانون لايجد المتخصص فى الطب بالشـام مثـل ابن القف وبمصر مثل ابن النفيس وبالاندلس مثل ابن زهر ولا بأى بلد عربية أخرى فى مختلف الأزمنـة الماضية أى صعوبة فى تمثل كل ما كتب لأنه كتبه بنفس المصـطلحات التى كانت متداولة للطب فى العالم العربى .

وعلى هذا النحو كان ما يؤلفه عالم فى الطب أو غير الطب وكل ما يحويه فى علمه من تجـارب ويحصل عليه من نتائج يشـيع عنه فى الأمـة العربية ويتدارسـه أبناؤها فى كل بلد ، وبالمثل كان ما يكتبه فيلسوف فى ايران أو فى بغداد أو فى أى قطر عربى يشيع فى الاقطار الاخرى، مما هيأ لنهضة فلسفية وعلمية كبرى ، اذ تعاون علماء الأمة وفلاسـفتها فى كل فـرع من فروع العلم وفى كل جوانب الفلسفة واتجاهاتها ، وكل تال يأخذ عن سـابقه ويؤسس على علمه ان كان عالما وعلى فلسفته ان كان فيلسوفا ، مما هيأ بقوة لأن تصبح الفلسفة ويصبح العلم فى الأمة تراثا مشتركا ، بل تراثا واحدا

ومما يدل بعمق على احساس الأمة بوحـدة هذا التراث وأنه يتشبث بذاتيتها وشخصيتها اننا نجد عرب الأندلس يتمسكون به ، ولايحاولون اى محـاولة فى الاسـتقلال بحركة علميـة أو فلسفية أساسها الترجمة عن اللاتينية ، وكان تراثها معروفا فى الأندلس قبل دخولهم اليها، غير انهم لم يفكروا فى نقل هـذا التراث الى العربية ، وكأنهم آثروا التمسك فى قوة بالتراث المترجم المشرقى وما اضاف اليه علماء المشرق وفلاسفته ، مما أحاله تراثا للأمة ، تراثا مشتركا، لا تختص به بلدة دون بلدة ولا فيلسـوف دون فيلسوف ولا عالم دون عالم فى محيط الأمة من أقصى الشرق الى أقصى الغرب .

وبذلك كانت الفلسفة العربية فلسفة مشتركة، وبالمثـل كان العـلم العـربى علما مشـتركا ، بحيث يحس العـالم العـربى احساسا قويا بأنه حلقة فى سلسلة متصلة ، وهى سلسلة كمـا تصله بأسـلافه تصله بمعاصريه ، فاذا هو يقرأ لهم ما يؤلفونه ، ومن اغرب الأشياء أن كانت الكتب تنقل فى تلك الحقب الماضـية بسرعـة قد لا نتصورها الآن ، ويبدو ان عمل الوراقة كان واسعا جـدا وأن الوراقين كانوا بمجرد ان يكتبوا كتابا لعـالم ينشرونه فى أوسـع نطاق ، وقد ساعدت على ذلك الرحلة السنوية المتصلة من جميع الأقطار العربية الى المدينتين المقدستين فى الحجـاز ، فكان العلمـاء يمرون بالوراقين ويأخذون منهم الكتب الجديدة .

وكان العلماء يتراسلون ، علماء الفقه وغيرهم، وبالمثل أصحاب علوم الأوائل كما كانوا يسمونها،

اصحاب الفلسفة والطب وغيرهما ، وقد يرحل عالم عن وطنه الى وطن عالم آخر ليناقشه فى هذه المسألة من العلم او تلك وليراجعه فى بعض آرائه ، وربما بقى فى البلدة الجديدة فترة يناظر عالمها ويطارحه فى بعض المسائل ثم يعود الى بلده ، كما صنع ابن بطلان طبيب بغداد فانه رحل منها الى القاهرة ليلقى طبيبها على بن رضوان ، وكانت قد كثرت المراسلات والمحاورات بينهما فى بعض مسائل طبية وفلسفية . ونزل ابن بطلان مصر لهذه الغاية سنة ٤٤١ للهجرة ومكث بها ثلاث سنوات يناقش ابن رضوان فى بعض الأمراض والأدواء . ولعل فى ذلك دليلا واضحا على ما نقول من ان لغة الطب كعلم من العلوم العربية كانت واحدة، وبالمثل كانت مصطلحاته والا ما استطاع هذان الطبيبان : البغدادى والمصرى التفاهم ، ولو ان ما ثقفه احدهما من علم الطب وتراثه كان مختلفا فى لغته ومصطلحاته عما ثقفه الآخر ما اجتمعا ولا التقيا ولا تراسلا ولا اشتركا فى مناظرة طبية . وهذا نفسه يلاحظ فيمن كانوا يرحلون عن بلدانهم رحيلا نهائيا الى بلدان اخرى ويستقرون بها ،ونقصد العلماء منأمثال ابنالهيثم عالم الطبيعة المشهور فانه هاجر من بلدته البصرة الى القاهرة وأقام بها الى وفاته يفيد منه الطلاب والعلماء والمتفلسفة بلغة الفلسفة والعلم التي كانت قد اصبحت لغة مشتركة بين الأقطار العربية . وبعد نحو قرنين من هجرته هاجر الى القاهرة ابن البيطار المالقى الاندلسى، وقد جعله سلطانها الكامل رئيسا على جميع العشابين بمصر . وطبيعى ان كانت لغته العلمية نفس لغتهم ، وهو يعد اهم صيادلة العالم العربى . وهكذا يضاف إسمه وتضاف شهرته الى العالم العربى لا الى موطنه القديم الأندلسى ولا الى موطنه الحديث مصر ، وكان العالم فى اى بلد عربى لم يكن عالما لبلده فحسب ، بل كان عالما للأمة العربية جميعها ، فعلمه لجميع بلدانها لا فرق بين بلد وبلد

ولم يهيىء ذلك لوحدة فى التراث العلمى فحسب ، بل هيأ لنهضة علمية كبيرة ، اذ تعاونت عقول كثيرة على الرقى بكل علم ، بحيث كان علماؤنا يشعرون بأنهم علماء عالم واحد تعددت اقطاره ، ولكل قطر دولته السياسية ، اما فى العلم فكانوا جميعا يشعرون بانهم علماء قطر واحد ، بل علماء مؤسسة علمية واحدة تمتد اطنابها حتى تشمل الوطن العربى جميعه . ويدل على ذلك أوضح الدلالة ان اسلافنا حين ترجموا لعلمائهم المختصين بعلوم الأوائل ولفلاسفتهم لم يخصوا علماء اى بلدة وفلاسفتها بكتاب خاص تنفرد به ، بل جمعوا علماء كل البلدان العربية وفلاسفتها فى كتاب واحد اعتقادا منهم بأنهم مشتركون فى تراث واحد وان وحدة علمية جامعة تضمهم لا فرق بين ايرانى وعراقى وشامى ومصرى واندلسى ، فهم جميعا علماء عالم واحد وتراث علمى واحد .

- ٤ -

وعلى نحو ما كانت تعم فى العالم العربى وحدة فى التراث الروحى والعلمى بجميع فروعه كانت تعم وحدة قوية فى التراث الادبى شعرا ونثرا ، اما الشعر فقد ظلت تقاليده راسخة على مر الأزمنة ، اذ ظل نظام قصيدته القديم بأوزانه وقوافيه . وحقا ظهرت عند العباسيين وفى الأندلس أنماط جديدة من الشعر المزدوج والمخمسات او المسمطات والرباعيات والموشحات ، ولكنها جميعا تخلقت فى احشاء القصيدة التقليدية ، تخلقت من موسيقاها ومن معانيها وصورها وصياغتها . ولعل هذا هو الذى كتب لهذه الانماط الجديدة ان تحيا وتزدهر بجانب القصيدة الام التقليدية وبمجرد ان ظهرت هذه الانماط شاعت وانتشرت فى العالم العربى جميعه ، واصبحت فى كل قطر عربى جزءا لا يتجزا من شعره وفنه . ونفس الموشحات — وهى اكثر هذه الأنماط تجديدا — اخترعها فى رأى بعض الباحثين الأندلسيون ، ومع ذلك لم يضعوا عروضها ، انما الذى وضعه شاعر مصرى هو ابن سناء الملك فى كتابه المشهور : « دار الطراز » . وهو يقوم فى وضع عروض الموشحات مقام الخليل بن احمد فى وضع عروض الشعر العربى . وهو — بما نظم من موشحات — يعد رمزا لدورة جديدة لها يتفوق فيها هو وغيره ممن خلفوه من المشارقة أمثال أحمد بن حسن الموصلى وابن مظفر والعزازى وابن نباته المصريين وصفى الدين الحلى العراقى على كثيرين من وشاحى الاندلس فلم تعد الموشحات فنا خالصا للأندلسيين ، بل اصبحت فنا شعريا عربيا عاما أو تراثا شعريا للعرب جميعا .

وحتى الأزجال العامية تبتكرها الأندلس وتشيع منها الى العالم العربى ، ويقول ابن سعيد فى منتصف القرن السابع الهجرى انه راى أزجال ابن قزمان اكبر زجالى الأندلس تروى ببغداد اكثر من روايتها بالمغرب ، وهو لا يريد بالمغرب بلاد المغرب وحدها ، بل يريد أيضا الأندلس . وبمجرد ان انتقلت ازجال الأندلس الى المشرق حاكاها المشارقة وأبدعوا فيها . فحتى الشعر العامى لبلد عربى يصبح تراثا

عربيا عاما لجميع البلدان العربية . وتصدى صفى الدين الحلى للازجال ووضع فيها وفى انماط الشعر العامية مثل المواليا والقوما والكان وكان كتابه « العاطل الحالى »

ولعلى فى هذا كله ما يصور — من بعض الوجوه — وحدة التراث الشعرى عند العرب على مر الزمن واذا أنت حاولت أن تقرن معانى الشعر وصوره فى العصر العباسى الأول الى العصور الماضية او حاولت ان ترد معانى العباسيين الخالفين الى معانى الشعراء السالفين منهم وجدت مالا يحصى من التماثل والتشابه فى المعانى والصور جميعا . وقد نهض من قديم بهذه المهمة نقاد العرب فيما اسموه بالسرقات محاولين ان يرجعوا كثيرا من معانى الشعراء واخيلتهم الى سابقيهم او معاصريهم من الشعراء ، وكتبوا كتبا مستقلة فى سرقات أبى تمام وفى سرقات البحترى منه وفى سرقات المتنبى منهما وتحدثوا طويلا عن سرقات أبى نواس وبشار وابن المعتز وغيرهم من شعراء العصرين : العباسى الأول والثانى . وقديما نقدت هذه التسمية وقلت انه ينبغى ان يوضع للسرقات اسم جديد يدل عليها ، واقترحت اسم التحوير الفنى وقلت انه من حق كل شاعر أن يتناول بعض معانى الشعراء الذين سبقوه ، ويحور فيها تحويرات شتى حسب ملكته فى معانى التراث الشعرى العربى وصوره ، الفنية . وعلى كل حال لاحظ القدماء هذه الشركة وهى شركة تدل على ان تلك الصور والمعانى تتجدد دائما وأن وحدة مستمرة تسرى فيها ؛ مهما اختلفت الاعصار وتفاوتت الأقطار .

وخذ مثلا كتاب الذخيرة لابن بسام ، وهو طائفة من المجلدات تترجم تراجم كبيرة لشعراء الاندلس ، واقرا فيه فانك ستجد ابن بسام — فى أقصى الغرب — يحس بقوة هذه الوحدة بين شعراء الأندلس وشعراء المشرق ، اذ يحاول محاولة بارعة فى أثناء الترجمة للشاعر الأندلسى أن يدلنا على معارضته لكبار الشعراء فى المشرق ، فتلك القصيدة عند ابن زيدون أو عند غيره من الأندلسيين صنعت معارضة لأبى تمام أو لأبى نواس أو بشار أو للبحترى أو لابن الرومى أو لابن المعتز او للمتنبى او للشريف الرضى او لأبى العلاء أو لغيرهم من شعراء المشرق . ولا يقف ابن بسام فى بيان هذا الجانب لشعراء الأندلس عند معارضاتهم العامة لقصائد المشارقة ، بل يأخذ فى بيان تحويراتهم — أو كما كانوا يسمونها سرقاتهم — لمعانى الشعراء العباسيين واخيلتهم من امثال من سميناهم . وبحق يقول ابن بسام فى مقدمة ذخيرته : « ان أهل هذا الأفق (الأندلس) أبوا الا متابعة أهل المشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة رجوع اهل الحديث الى قتادة حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما »

ولم يكن هذا شأن الأندلس وحدها ، بل كان شأن جميع البلاد العربية ، فقد اكبت على التراث الشعرى واستوعبته وتمثلته ، ولم تبق بلدة فى العالم العربى الا ضمته الى صدرها ، وحافظت بقوة على تقاليده ، وهى ليست المحافظة التى تعنى الجمود ، فقد كانت تجدد فيه وتولد وتفرع فروعا مونقة على نحو ما حدث فى الأندلس نفسها ، فانها جددت وابتكرت فى كثير من معانى الشعر وأفكاره وصوره ، وامتد تجديدها الى الأوزان والقوافى ، فزاوجت بينها وخالفت واستحدثت الموشحات ، ولكنها لم تنفصل بها عن التراث الشعرى العربى ، بل مضت تتوغل فيه وترتبط به وتستظهر رواسبه المعنوية والتصويرية ، بحيث شاعت موشحاتها فى البلدان العربية ، ولم تعد محتكرة لها ولا موقوفة عليها اذا اصبحت حقا عاما من حقوق التراث الشعرى العربى .

وهذه الوحدة الوثيقة للتراث الشعرى عند العرب وكل ما يجد فيه ترى فى صور مختلفة ، منها أن نجد المترجم لشعراء اقليم عربى لا يلبث أن يترجم لشعراء جميع الأقاليم العربية وبدا ذلك الثعالبى فى كتابه « اليتيمة » فانه ترجم فيه لجميع شعراء الاقطار العربية موزعا لهم على بلدانهم من خراسان الى الأندلس ، وتبعه الباخرزى يصنع صنيعه فى كتابه « دمية القصر » وصنع مثلهما الحظيرى فى كتابه « زينة الدهر وعصرة أهل العصر » وبالمثل الف العماد الأصبهانى كاتب صلاح الدين الأيوبى موسوعته الكبرى : « الخريدة » عن شعراء البلدان العربية فى القرن السادس الهجرى ، وقد نشر منها خمسة مجلدات عن العراق وثلاثة مجلدات عن الشام والجزيرة العربية واثنان عن مصر واثنان عن المغرب والأندلس . وجميع هؤلاء الشعراء — فى راى العماد الأصبهانى ومن سبقوه الى هذا المنهج فى التاليف — انما هم شعراء أمة واحدة ، وأشعارهم تمثل تراثا واحدا ، مهما ابعدوا فى بلدانهم شرقا أو غربا، وكأن كل شاعر منهم ليس شاعر بلده وحده وانما هو شاعر البلدان العربية بأمرها ، فلكل بلد فيه حظ مقسوم .

ولعل المتنبى أهم شاعر يصور ذلك الى ابعد مدى ، فانه لم يكن يوما شاعر الكوفة

مسقط راسه وحدها ، ولا شاعر العراق وحده، فقد شغل العرب جميعا منذ ظهوره ، وأخذوا يروون شعره ويحفظونه ويتداولونه وينشدونه منذ حياته الى اليوم ، ويخيل الى الانسان انه لم تبق بلدة كبيرة فى العالم العربى الا تجرد منها شارح أو اكثر لشرح شعره وروايته للناس . ولن نستطيع ان نذكر كل شراحه ، فهم عشرات موزعون على البلاد العربية ، منهم ابن جنى الموصلى العراقى وابن فورجه البروجردى الايرانى وأبو العلاء المعرى وسمى شرحه معجز احمد والواحدى الايرانى والخطيب التبريزى وعبد القاهر الجرجانى والافليلى وابن سيده الأندلسيا نوالمصيصى المصرى وابن القطاع الصقلى وابن المستوفى الاربلى الموصلى . وبالمثل لم تكن تخلو بلدة عربية من كتابة دراسة عنه ، ومن اهم الدراسات التى تناولت شعره الرسالة الحاتمية لأبى على الحاتمى البغدادى ورسالته الثانية المسماة الموضحة، وهما منشورتان ، والوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى والمنصف لابن وكيع التنيسى المصرى والابانة للعميدى ، وهو ايضا مصرى وأبيات المعانى للقزاز التونسى . وتتوالى دراسات كثيرة حتى نلتقى بكتاب تنبيه الأديب على ما فى شعر أبى الطيب من الحسن والمعيب لباكثير الحضرمى وكتاب تنبيه ذوى الهمم على مآخذ أبى الطيب من الشعر والحكم للزمزمى المكى وكتاب الصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى للبديعى الدمشقى . ومنذ وجد المتنبى لايكاد يصنف كتاب فى النقد او البلاغة الا ويقتطف مؤلفه ازهارا من شعره

والمتنبى بذلك كله يصور وحدة قوية للتراث الشعرى العربى ، وكأن شعره لواء كبير اظل العرب من أواسط آسيا الى جبال البرانس ، ولا يزال يظلهم الى اليوم واجدين فيه صورة نفوسهم وروح آبائهم وعواطفهم ومشاعرهم وكل ما الم بخواطرهم من احاسيس قوة ومجد وكل ما شغفوا به من عروبتهم وما يتصل بها من مشاعر العزة والكرامة والترفع عن الدنايا والطموح الى المثل الحميدة .

وهذه الوحدة المنبثقة فى التراث الشعرى تنبث أيضا فى التراث النثرى بحيث لم يكن يظهر كاتب كبير فى بيئته الا وتتسامع به البيئات الاخرى ، وما تلبث أن تتخذ الأسباب الى نقل فرائده وبدائعه وخير ما يصور ذلك ما يروى عن زائر اندلسى للجاحظ فى البصرة من أنه قال له ان الأديب يعظم عند أمرائنا اذا راوه يعنى برواية رسالتك : التربيع والتدوير، وهى رسالة تعد فى الذروة من اعمال اسلافنا الادبية ، وناهيك بالجاحظ وروعة بيانه . والمهم ان آثار الجاحظ كانت قد نقلت الى الاندلس فى اقصى الغرب ، وهو لا يزال على قيد الحياة ، اذ كانت قد رحلت هذه الرحلة الطويلة مع المعجبين به وبأدبه . ومعنى ذلك أن الجاحظ فى حياته لم يكن اديب البصرة وحدها ولا اديب بغداد وحدها اذ كان يلم بها ، ولا أديب العراق وحده ، بل كان اديب العالم العربى جميعه. وقل ذلك نفسه فى ابن المقفع صاحب الادب الكبير والصغير ومترجم كليله ودمنة . وقله ايضا فى غير ابن المقفع والجاحظ من الكتاب العباسيين — حتى اذا ظهر ابن العميد واتخذ لنفسه اسلوبا متميزا بالسجع والمحسنات البديعية ، تبعه فيه كتاب ايرانيون وعراقيون كثيرون مكونين معه مدرسة نثرية ، — سرعان ما عم اسلوبها البلاد العربية اينما اتجهت شرقا أو غربا ، الى أن ظهرت مدرسة القاضى الفاضل بمصر مضيفة التورية ومحسنات بديعية مختلفة فعم اسلوبها بدورها جميع الأقطار . ولا ننسى مقامات بديع الزمان والحريرى ، فقد تداولتهما جميع البلدان العربية ، ولم تكد تخلو بلدة من كتاب يقلدونهما ويصوغون مقامات على نمط مقاماتهما ، وهم يعدون بالعشرات ، وكل ذلك كان يتحول تراثا نثريا للامة — وهكذا عالم واحد فى النثر وفى الشعر ، بحيث لا تكاد تقرأ قصيدة فى العصور المتأخرة الا وترى العصور السالفة من خلالها سواء فى الصور او فى المعانى والأفكار ، وكذلك الشأن فى المقامات والرسائل والاعمال النثرية ، فكلها تنزع عن اقواس واحدة وما هذه الأقواس الواحدة الا هذه الوحدة المتغلغلة فى التراث الشعرى والنثرى .

- ٥ -

ومما يوضح هذه الوحدة فى التراث العربى شعرا ونثرا ما اشرنا اليه فى حديثنا عن المذاهب الفقهية وعلوم الأوائل من كتب التراجم ، فقد ترجم الأسلاف لكل أصحاب مذهب فقهى على حده ، وجمعوا أصحاب علوم الأوائل معا فى كتب خاصة بهم ، وافردوا كتبا لتراجم المفسرين والقراء والمحدثين او الحفاظ للحديث النبوى والنحاة . فكل فئة علمية افردوها او خصوها بكتب تترجم لأصحابها دون ملاحظة بلدانهم واعصارهم ، لا فرق بين علماء بلد وبلد ولا بين علماء عصر فى هذا العلم او ذاك . وتجرد قوم لتأليف كتب تراجم عامة مثل معجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر والوافى بالوفيات للصفدى ، وفى

هذه الكتب تساق تراجم العلماء والأدباء من كل صنف ، ويساق معها تاريخ دقيق لكل عالم أو شاعر أو كاتب دون نظر الى بلده أو زمنه ، وانما دفع هؤلاء المؤرخين الى ذلك شعورهم العميق بأن اصحاب هذه التراجم جميعا شركاء في تراث واحد ، ليكن علما دينيا أو لغويا أو نحويا أو بلاغيا ، أو ليكن شعرا أو نثرا ، فجميعه تراث واحد ، وهم لذلك يترجمون لهم أبجديا واحدا بعد آخر ، متنقلين مثلا من لغوى الى محدث الى شاعر الى فقيه دون ملاحظة اى ترتيب زمانى أو مكانى . وسار فى نفس المنهج والاتجاه من جمعوا تراجم القرون المتأخرة من الثامن الى الثانى عشر ، فلكل قرن من هذه القرون كتابه الخاص بعلمائه من كل نوع وادبائه من كل لون ، وهم مجموعون من العالم العربى جميعه من شرقيه الى غربيه دون أى استثناء لبلد أو لعالم أو لشاعر أو لكاتب ، اذ هم جميعا حملة العلم والأدب فى الوطن العربى جميعه ، وينبغى أن يكون لكل منهم مكانه فى الكتاب ، وعادة يكون الكتاب كبيرا فى مجلدات .

وهو شيء يعز على الفهم تبين طريقة استيفاء ذلك واستقصائه ، اذ نجد مثلا ابن حجر فى كتابه « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » لا يكاد يترك عالما بارعا ولا أديبا نابها فى العالم الا ويترجم له فى كتابه بحيث يستطيع ان يستخرج منه الباحث فى الحركة العلمية أثناء القرن الثامن الهجرى لأى قطر عربى من الأقطار كالاندلس ، صورة هذه الحركة فيه وأهم أعلامها فى مختلف العلوم ، وبالمثل يستطيع الباحث فى الحركة الأدبية بنفس القرن أن يرسم منه صورتها واهم الشعراء والكتاب فى أى بلد من البلدان العربية كالعراق أو الشام . وهذا نفسه يقال عن كتاب الضوء اللامع الذى ترجم فيه السخاوى لعلماء القرن التاسع وادبائه . وبالمثل الكتب التى ترجمت لمن عاشوا فى القرون التالية من العلماء والأدباء ، ونعجب كيف استطاع هؤلاء المؤرخون أن يتعرفوا على جميع أدباء العالم العربى وعلمائه فى القرون التى اهتموا بها ، وكأنما كانت هناك صلات وعلاقات تربط العالم العربى بعضه ببعض فى تلك الأزمنة لا نستطيع ان نفهمها بسهولة ، لأننا لو حاولنا الآن نفس المحاولة فى القرن الثالث عشر الهجرى او فى القرن الرابع عشر واردنا ان نجمع تراجم العلماء والأدباء فى كل قطر عربى لعجزنا عن ذلك أو لا تضح لنا غير قليل من العجز والقصور . ومن المؤكد ان هذه العلاقات والصلات السالفة لم تكن الا شيئا واحدا هو وحدة التراث العربى التى وصلت البلدان العربية بعضها ببعض صلة وثقى ، فاذا العالم أو الأديب فى بلدة عربية معروف معرفة تامة فى الوطن العربى جميعه .

ومما يدل بوضوح على هذه الوحدة فى التراث كتب التاريخ العام ، فانها ظلت طوال الأزمنة السابقة تؤرخ للعالم العربى جميعه لا تترك دولة ولا امارة دون ان تعرف بها وتقف عند أحداثها مرارا . ونجدها تذكر — فى كل سنة على مدار السنين — أعلام العلماء والأدباء المتوفين بها فى البلدان العربية من أقصى المشرق الى أقصى المغرب . وقد يكون الكتاب خاصا بتاريخ بلدة معينة مثل « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى . والكتاب فى ستة عشر مجلدا ، وهو خاص بمصر كما يوضح ذلك عنوانه ، ونجده لا يكتفى بالتأريخ سنويا لأحداث مصر ، بل يضيف الى تلك الأحداث دائما احداث جميع البلدان العربية ودولها واماراتها مع ذكره فى كل سنة يؤرخ لها من توفى فيها من نابهى الأدباء والعلماء فى العالم العربى جميعه مترجما لهم ترجمات موجزة دقيقة . وبذلك يحمل تاريخ القطر العربى — كمصر — فى أطوائه تاريخ جميع الأقطار العربية وتاريخ من كان بها من صفوة الأدباء والعلماء. وكل ذلك لما استقر فى نفوس الأسلاف من وحدة التراث العلمى والأدبى فى العالم العربى الكبير وان اقطاره وان انفصلت سياسيا فانها لا تنفصل روحيا ولا ثقافيا ولا علميا ولا ادبيا ، شأنها فى ذلك شأن خلجان تنتشر على شاطىء بحر كبير ، تبدو فى الظاهر منفصلة ، بينما هى متواصلة تواصلا مستمرا ، اذ تمدها جميعا مياه واحدة على نحو ما كان يمد اقطار العالم العربى — ولا يزال يمدها الى اليوم — تراث واحد .

● ●